سيرة السيد عمر مكرم

تأليف الأستاذ محمد فريد أبو حديد

فرغت من قراءة هـذا الكتاب التحليلي المحكم ، كما يفرغ الانسان من شهود فلم تاريخي متقن ، وبدل أن أرفع يدى لأصفق ، أخذت قلمي لأكتب . شبهت هذا الكتاب بالفلم لأنه أوسع من الرواية ، وأوضح من القصة ، وأروع من السيرة ؛ ففيه البيئة والمكان ، وفيه الصور والألوان ، وفيه الوقائع التي تتكلم ، والخوالج التي تتجسم ، والدقائق التي تسفر ، والفروق التي تتضح . وتجلية الحياة المصرية السياسية والاجتماعية في القرن الثامن عشر على هذه الصورة الرائعة البارعة الملهمة لاتتهيأ إلا لأمثال الأستاذ فريد ممن توفروا على اكتناه الحق في هذا العهد المجهول المظلوم ، وأوتوا مع تلك البصيرة التاريخية التي لاتطيش ، والضمير العلمي الذي لايخدع ، والقلم الفني الذي لا يزلّ . والأستاذ فريد من كتابنا القلائل الذين لا يخرجون ما ينتجون إلا عن اختصاص محيط ودرس شامل وروية صادقة وضرورة حافزة وغرض نبيل . وقد عهده الناس في تأليفه محققاً ، وفي ترجمته أميناً ، وفي قصصه مجوداً ، وفي شعره مجدداً ، وفي أبحاثه حجة . وهو بعد زيدان زعيم المذهب التاريخي في القصة على نحو ما كان (ولتر سكوت) ؛ وحبه الخالص لمصر صرف هواه وجهده إلى تاريخها القديم والحديث نخدمه خدمة جلي وغرسه في قلوب النشء غرساً مثمراً بالتعليم في أسمى درجاته ، وبالتأليف في شتى فنونه ؛ واعتزازه الصادق باستقلال وطنه وجّه نشاطه إلى ذلك العصر الذي خلص فيه سلطان مصر إلى أبنائها الخلّص الذين وُلدوا فيها ، ونُشّئوا لها ، وذادوا عن حياضها المطهرة طمع الواغل الدخيل ذيادَ الأحرار البررة ؛ واتصافه بالخلق النبيل والطبع الحر جعله يُغرم فيه بالشخصيات الكريمة الحرة التي جلاها لقراء (الرسالة) في مناسبات شتى ، ومنها هذه الشخصية العزيزة السيدة : شخصية السيد عمر مكرم التي أفرد لها هـذا الكتاب الذي نتحدث اليوم عنه

* * *

(سيرة السيد عمر مكرم) صورة فنية مشرقة لمصر في القرن الثامن عشر ، تقرأها فكأنك تشاهده ، وتستبطنها فكأنك تعيش فيه ؛ برز فيها وجه هذا الرجل الأبي صادقَ النظر أشم الأنف ناطق الملامح ، فجعله فريد مثالا للخلق المصري المحض في ذلك العهد ، ومثلا للجيل المصري الناشئ في هـذا العهد « وقد رأينا الأمم الحديثة — وهي تسعى لتحفيز أبنائها إلى المكارم ، وحضهم على المعالي — تلجأ إلى التاريخ فتستخرج منه صور المجـد والبطولة فتعرضها على الجيل الحاضر ليجد فيه مثلا يحتذيه ، وأملا يتطلع إلى تحقيق مثله ، وهي تقصد بذلك إلى إعلاء نفوس أبنائها ، والتسامي بأرواحهم وعواطفهم ، وإثارة الخامد من طموحهم ، بالتلويح لهم بأعلام المجد ، والاشارة إلى ذرى الأماني الانسانية . ومصر بحمد الله عريقة في كل مكرمة ، غنية في كل فن ، عبقرية في كل وجهة ؛ فليس الواقع يعجزها ، ولا الحق يخاذلها ، إذا هي أرادت المُثل العالية ، أو رسم صور البطولة والمجد » (١)

(١) من مقدمة المؤلف

الكتاب مشوّق جذاب بموضوعه وطريقته وأسلوبه . أما موضوعه فجهاد مصر في سبيل حقوقها وبلوغها من ذلك بفضل الأحرار من زعمائها أمثال السيد عمر مكرم ماتبغيه من حفظ كرامتها وإنفاذ إرادتها حتى بلغ من فوزها أن تحللت من إرادة الخليفة فعزلت بقوتها من الولاة من يفسد ، وولت برأيها منهم من يصلح ؛ وهو موضوع من أحب الموضوعات إلى النفس ، لأنه قصة الحياة ومطمح الانسانية إلى السمو . وأما طريقته فطريقة التحليل النفسي بصدقه ودقته ، والعرض الروائي بطلاوته وحبكته . وأما أسلوبه فقد ارتفع فيه فريد إلى الدرجة العليا من الفن : جزالة في رقة ، وبلاغة في سلامة ، وإيجاز في وضوح ، ومنطق في شعر . وحسبي من ذلك أن أضع أمامك صورة صغيرة من الفصل الجميل الممتع الذي عقده لثورة المصريين على الفرنسيين في مارس من سنة ١٨٠٠ ، وقد عز القاهريين النصير ، وخذلهم الأمير ، وأهملهم الخليفة ، وسلط عليهم المحاصرون النار ، وأرسلت عليهم السماء المطر ، حتى قال فريد : « وأمسى أهل تلك الأحياء المنكوبة ليلة العاصفة وهم في أشد حالات البؤس والكرب ؛ يحاولون الخروج من منازلهم برغم الرعد والبرق والمطر المنهمر ، فتعوقهم المياه المتدفقة ، وتنزلق أقدامهم في الأوحال الخوانة ، فاذا بهم يسمعون قصف المدافع من بين أيديهم ، ويرى بعضهم أخاه صريعاً إلى جانبه قد أصابته رصاصة لايرى قاذفها البعيد ، فيقف لحظة ينظر في إسعاف الصريع ، فاذا به يسمع هيعة من خلفه ، فينظر فاذا باللهب يندلع في منزله الذي تركه منذ حين قصير ، فيذكر الصبية الذين خلفهم فيه ، فيثب قلبه في صدره ، ويهم منتفضاً كالملسوع . ويعدو نحو بيته وهو لا يعي من الفزع ؛ وفيما هو يعدو تطرق أذنيه صرخات داوية يملؤها الهلع والذعر ، من نساء كدن يخرجن عن الوعي من الهول ؛ ويرى ماء المطر يهبط على النيران فلا يزيدها إلا توهجاً واندلاعاً ، ويسمع من دون فحيح اللهب وقعقعة النار صوتاً كأنما هو من صبية يستغيثون ، فيقتحم اللهب يطمع أن ينقذ فلذات كبده من بين أنياب السعير ، فما يكاد يخطو في المنزل خطوات حتى تحيط به النيران ، ويطيش سائراً ويتخبط حائراً حتى يوقن أنه لن يستطيع إنجاء ولده ، فتثور الطبيعة في رأسه ، ويخشى على نفسه ، فيحاول العودة من حيث أتى ، ولكن النار تحيط به وتأسره ، فيضطرب ويختنق ، ويحاول الصراخ فلا يخرج صوته ، ثم يثبت في مكانه ويقع لايعي ، وينطبق اللهب مرة أخرى كأن ليس في جوفه شيء »

فأنت ترى أن « سيرة السيد عمر مكرم » بمنهاجها الذي سارت عليه ، وغرضها الذي هدفت إليه ، وأسلوبها الذي كتبت به ، حرية بأن تكون في يد كل شاب قدوة ، وفي يد كل كاتب نموذجاً ، وفي يد كل قارىء ثقافة ولذة .

جزى الله مؤلفها الفاضل خير مايجزي به العامل المخلص على جهده وقصده وتوفيقه .

الزيات

لجنة التأليف والترجمة والنشر

سيرة السيد عمر مكرم

لمؤلفها الأستاذ محمد فريد أبو حديد

سيرة جليلة من سير الزعامة الشعبية وصفحة رائعة من صحف الجهاد القومي خلال القرن الثامن عشر حتى فاتحة عهد محمد علي عندما اجتمعت كلمة الشعب على اختيار مليكه المحبوب جد الأسرة الملكية الكريمة

والكتاب مزين بالصور التاريخية

ثمنه ١٠ قروش عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنة بشارع الكرداسي رقم ٩
ومن المكاتب الشهيرة

« طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المهدي بعمارة نجم رقم ٧ »